الشــك

أبو سفيان بن الحارث

رضي الله عنه

لا تتجاهل ما يتلاعب برأسك من أفكار..

واجه نفسك واحسم الأمــر.

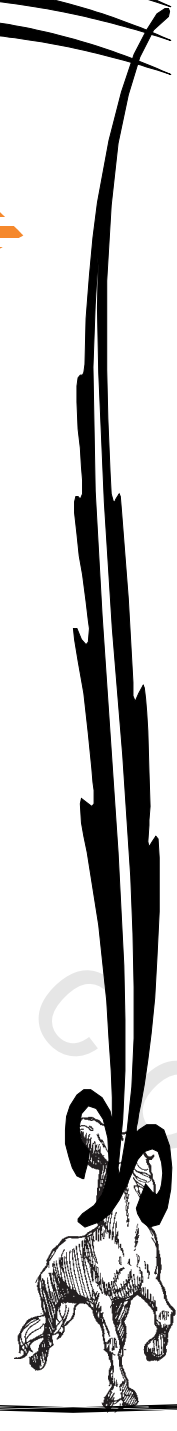

obeikandl.com

« إنه أبو سفيان بن الحارث، جاء بأخبار جيشنا في بدر ».

هتف بها أبو لهب وهو ينهض مشيرا إلى « أبي سفيان بن الحارث » الذي جاء مسرعا على فرسه قادما من معركة بدر، وبمجرد أن أوقف فرسه، لاحقه أبو لهب وقد بدا عليه القلق قائلا:

- حدثنا يا ابن أخي عما دار في المعركة، فكلنا في شوق لمعرفة ما حدث.

نظر إليه أبو سفيان وقد ملأ عينيه الحزن، وهو يقول في يأس:

- أحدثك ؟ عم أحدثك ؟ والله لقد أعمل جند محمد سيوفهم في رقابنا كيفما شاؤوا، وأسروا منا من شاؤوا، لقد كان الموقف أكبر منا جميعا.

ثم جلس وهو يأخذ نفسا عميقا وهو يقول في تأمل:

- لم نحاربهم وحدهم، حارب معهم آخرون، رجال بيض على خيل، بين السماء والأرض، ما يشبهها شيء، ولا يقف أمامها شيء.

نظر إليه أبو لهب وقد بدا مصدوما من هول المفاجأة وهو يقول متسائلا:

- حارب معهم آخرون ؟! ماذا تعني بـ..؟!

وقبل أن يكمل أبو لهب كلامه قاطعه أبو سفيان في حدة قائلا:

- أعني أن قريشا هزمت يا أبا لهب، وشر هزيمة..

وتابع في أسى وهو يقول:

- هزيمة ما كان يتوقعها أو يتخيلها أحد، أو يحسب لها حسابا، قتل الكبار والزعماء، وأسر الشباب، وضاعت هيبة قريش.

ولم يكن أبو سفيان في حال تجعله يكمل حديثه مع أبي لهب، الذي جبن عن الخروج إلى المعركة ليرسل بدلا منه نائبا عنه هو العاص بن هشام.

ترك أبو سفيان أبا لهب ذاهلا شاردا مما سمع، وسار في طريقه إلى منزله يجر قدميه، ومشاهد الحرب المفزعة تتراقص أمام عينيه ، والأفكار تدور في رأسه كرحى الحرب لا يدري كيف يوقفها...

كيف حدث هذا ؟!

كيف استطاع محمد بقوته القليلة وعتاده الضعيف، أن يهزم قريشا بجيشها الكبير وفرسانها الكثيرين ؟!

كيف استطاع محمد وأصحابه الذين أذلتهم قريش، أن يهزم قريشا بكل كبريائها وعزها ومكانتها بين العرب؟!

يا لها من كارثة وفضيحة ، ستتحدث بها ألسنة العرب طويلا.

لأول مرة أرى محمدا ينتصر في ميدان الحرب..

كان دائما ينتصر في ميدان الكلام والحجة..

طيلة خمسة عشر عاما، لم يستطع أن يقف أحد أمام منطقه القوي وحديثه الساحر.

خمسة عشر عاما وأنا أحاربه بكل ما أستطيع..

هجوته بأشعاري، وألبت عليه الجميع، وحملت عليه السيف.

بغضي له ولدعوته كان أكبر من كل شيء. .

كان حتى أكبر من كوني ابن عمه، وأخاه في الرضاعة.

ترى من الذي فرق بيننا وأبعدنا عن بعضنا البعض كل هذه المسافات ؟

هوأم أنا ؟

أفكاره ودعوته الجديدة ؟ أم أفكارنا ومصالحنا ؟

ترى..أيكون محمد على حق ؟

ترى من هؤلاء الفرسان البيض الذين رأيناهم في المعركة، ولم يستطع أحد منا أن يمسهم بسوء؟!

يا ترى.. ما الأمر إذن ؟!!

* * *

كانت رحلة أبي سفيان في غزوة بدر هي رحلة الشك..

لقد خرج أبو سفيان من المعركة بشكوك كبيرة تلاعبت برأسه..

ومع الوقت أخذت تلك الشكوك تتضاءل، ليعزم أبو سفيان مرة أخرى دون تردد على حرب الرسول ﷺ بكل ما يملك من قوة.

إلا أن الشكوك تظل تقفز بين الحين والآخر أمامه كمارد جبار لا يستطيع أن يغمض عنه عينيه..

كان يحارب الرسول ﷺ وهو يقرأ الأحداث في بدر وأحد والأحزاب.

ويفكر..

وعلى مر أربع سنوات، أخذت تتزاحم الأفكار في رأسه ، وتتزايد المشاهد أمام عينيه ، ويتزايد الكلام الذي يتردد في أذنيه.

وأخيرا..أخذ أبو سفيان قراره..و

« لقد قررت السفر إلى المدينة يا جعفر ».

قالها أبو سفيان في حسم لابنه جعفر الذي لاحقه في قلق قائلا:

« ذاهب إلى المدينة ؟ كيف يا أبي وأنت تعلم أن محمد قد أهدر دمك جزاء ما أهنته وعاديته، أنت مهدد بالقتل في أي لحظة لو قابلك فيها أحد المسلمين وأنت في طريقك إلى المدينة ».

تنهد أبو سفيان قليلا ثم قال:

- نعم يا بني.. أعرف، ولقد أعددت العدة لذلك.

ثم وضع يده على كتفه وهو يقول:

- احزم أمتعتك معي، ولا تخش علي.

وكان أبو سفيان قد أعد العدة بالفعل.. فلقد لجأ إلى التخفي بلثام وضعه على وجهه ، فلا يستطيع أن يميزه أحد.

وبينما يسير أبو سفيان مع ابنه جعفر في طريقه إلى المدينة، حتى هتف جعفر قائلا وهو يشير بيده إلى بعيد:

- ما هذا؟..انظر يا أبي.

هتف أبو سفيان:

- إنه جيش يزحف في اتجاهنا.

ثم تابع في دهشة:

- إنهم المسلمون.. قادمون إلى مكة !!

كان جيش المسلمين في طريقه بالفعل لفتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وكانت فرصة ذهبية لأبي سفيان بن الحارث وولده جعفر أن يكتب من المهاجرين في اللحظات الخيرة.

وبسرعة..

انطلق أبو سفيان وابنه جعفر وهما يقتربان من الجيش ليبحثا عن رسول الله ﷺ.

وما إن وجداه، حتى ارتمى أبو سفيان تحت أقدام الرسول ﷺ، وقبل أن يسأله الرسول ﷺ عن طلبه وهويته، كان أبو سفيان يزيح القناع عن وجهه، وبمجرد أن يراه الرسول ﷺ يعرض عنه وقد اكتسى وجهه بالغضب..

إلا أن أبا سفيان يقوم مسرعا من الناحية الأخرى، ليجلس على ركبتيه في كامل خضوعه وهو يقول :

« يا رسول الله..

أشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله ».

ونظر أبو سفيان إلى الرسول ﷺ نظرة استعطاف وهو يقول:

- يا رسول الله.. إني أرجوك بكل جوارحي..لا تثريب.

obeikandl.com

نظر الرسول إلى ﷺ أبي سفيان، فوجد وجه الرجل الذي ظل يحارب الله ورسوله ﷺ طيلة عشرين عاما، ينطق بالصدق والإخلاص والتوبة، فنظر إليه نظرة عطف ورحمة وهو يحاول أن يزيل ملامح الغضب من على وجهه قائلا:

« لا تثريب يا أبا سفيان ».

ثم التفت إلى علي بن أبي طالب قائلا له:

« علم ابن عمك الوضوء والسنة يا علي، ثم عد به إلي ».

وفور عودة أبي سفيان مسلما طاهرا، قال لعلي :

« يا علي، ناد في الناس، أن رسول الله قد رضي عن أبي سفيان، فارضوا عنه ».

لقد قبل الرسول ﷺ إسلام أبا سفيان وأعلن العفو عنه.

و بدأت تنمحى عداوة السنين، وأبو سفيان يسير في ركب جيش المسلمين لأول مرة في حياته، عائدا إلى مكة ليشارك المسلمين في انتصار تاريخي مذهل..

فتح مكة.

* * *

كان على أبي سفيان أن يفكر بعد أن ظل ينصر الباطل عشرين عاما، فما الذي سيفعله لينصر الحق في سنواته القادمة.

وبكل شوق الدنيا..أخذ أبو سفيان ينطلق في كل غزوة مع الرسول ﷺ شاهرا سيفه ليرفع راية الحق ويدافع عن الله ورسوله ﷺ.

ولقد واتته الفرصة في حنين ليسدد شيئا من دينه القديم لرسول الله ﷺ.

فعندما نصب المشركون من قبيلة هوازن كمينا مفاجئا للمسلمين في بداية المعركة، حدث انشقاق رهيب في الصف المسلم، وارتبك الجيش بشدة، وبصورة جعلت عددا كبيرا من الجنود يفرون بعيدين عن المعركة.

وهنا وقف الرسول ﷺ ينادى بأعلى صوته ليجمع الجيش حوله من جديد قائلا:

« إلي أيها الناس..أنا النبي لا كذب..أنا ابن عبد المطلب».

كانت لحظات رهيبة، والرسول ﷺ يرى الجنود يفرون من حوله..

إلا أنه ورغم شدة الموقف وهوله، كان هناك من ثبت حول رسول الله ﷺ، ولم يفكر لحظة في الهروب.

وكان من بين هؤلاء الأبطال.. أبو سفيان بن الحارث.

فلقد وقف أبو سفيان بكل شجاعة.. وهو يمسك بلجام فرسه بيسراه، بينما يمسك سيفه بيمناه

يوجهه لنحور المشركين بكل قوة..

وما هوالا وقت قصير، حتى نجح نداء الرسول ﷺ في جمع المسلمين حوله مرة أخرى ليعيد المسلمون توازنهم من جديد، وينقضوا انقضاضة على المشركين قضت عليهم.

وما إن انتهت المعركة.. حتى التفت الرسول ﷺ ليجد أبا سفيان ثابتا في مكانه، وهنا ابتسم الرسول ﷺ وهو يقول لأبي سفيان وكأنه يراه لأول مرة:

« من..أخي أبو سفيان بن الحارث؟!».

وتسمر أبو سفيان للحظات من شدة ما أصابه من فرح لم يكد يصدق ما قاله الرسول ﷺ.

لقد قال له الرسول ﷺ.. « أخي ».

يا لها من كلمة رائعة حلقت بأبي سفيان بجناحين في السماء.

لقد أيقن معها أبو سفيان أن الرسول ﷺ قد رضي عنه بالفعل، وأنه قد نسي كل ما فات، وأنه قد وصل لديه إلى مكانة عالية..

مكانة الأخوة..

يا لها من كلمة كان يحتاج أبو سفيان لأن يسمعها منذ زمن.

وبمجرد أن نطقها الرسول ﷺ، وجد أبو سفيان نفسه ينكب على قدمي الرسول ﷺ وهو يبكي وقد اختلطت دموعه بفرحته.

وانطلق لسان أبو سفيان لينشد شعره..

ولكن هذه المرة ليصف ما أنعم الله عليه من شجاعة وإقدام في سبيل الله ورسوله ﷺ..

لقد علمت أفناء كعب وعامر ... غداة حنين حين عم التضعضع

بأني أخوالهيجاءأركب حدها ... أمام رسول الله لا أتتعتع

رجاء ثواب الله والله راحم ... إليه تعالى كل أمر سيرجع

ولأن « أبا سفيان » قد فاته الكثير..

كان يزيد من عبادته قدر ما استطاع، راجيا من الله أن يرفعه عنده درجات ودرجات.

وزاد أبو سفيان من مناجاته لربه حتى اشتاق إليه، إلى الحد الذي جعله يذهب بنفسه إلى البقيع، ليحفر له قبرا ثم يهيئه ويسويه.

و عندما رأوه الناس، أبدوا دهشتهم مما يفعل ، فنظر إليهم قائلا في هدوء:

- علام دهشتكم ؟!..أني أعد قبري !!

ويا للعجب..فلم يمكث قبره خاليا إلا ثلاثة أيام فقط !!

بعدها.. كان أهله يتباكون في داره من حوله، وهو ينظر إليهم مبتسما في راحة وطمأنينة قائلا:

- لا تبكوا علي، فإني لم أتصف بخطيئة منذ أسلمت!!

نعم يا أبا سفيان.. لقد أسلمت فحسن إسلامك.

فكان لك أن تهدأ وتطمئن.

وآن لنا أن نتأمل في حياتنا كثيرا.

* * *

obeikandl.com

دروس وتحليل

١ - الإسلام دين عقل، يفهمه ويؤمن به كل من يفكر فيه بعيدا عن الشهوات والمصالح (أبو سفيان بن الحارث يفكر فيما حدث في بدر ويحلله ويهتدي).

لا يبتعد عن دخول الإسلام أوالالتزام به إلا شخص فكر فيه مقيدا دون حرية، والقيود هنا ليست قيود مادية بالمعنى المفهوم، ولكنها قد تكون قيود الشهوة والمصالح، كالسلطة والمال والشهرة..إلخ.

وكثيرا ما نجدهم يهاجمون فرائض واضحة في الإسلام كالحجاب مثلا، أو يرون عدم الضرورة في فرائض أخرى كالصلاة، أو يعتبرون العبادات نوعا من العلاقة الخاصة بين العبد وربه لن يحاسبنا الله علينا، وهي فلسفة اخترعوها من أنفسهم ليبرروا لأنفسهم عجزهم عن التنازل عن الشهوات كالراحة أوالتزين أو حب الشهرة، ويظلون هكذا يبررون كل فعل يبعدهم عن الالتزام بفرض، أوالتمسك بقيمة إسلامية، ليصنعوا لأنفسهم فلسفة خاصة، فلسفة وظيفتها إرضاء أنفسهم بأنهم مسلمون يرضى الله عنهم، وأن ما يفعله المتدينون ما هوالا مبالغة لا داعي لها.

ويظل هذا الوضع قائما حتى يتم فك القيود المكبلة للتفكير السليم، وعندها تتضح الأمور ويضاء الطريق ويتخذ قرار الهداية، ويعترف الإنسان أمام نفسه بأنه كان على خطأ فيما يقول.

من أجل ذلك..دعا الإسلام إلى الحرية وشدد عليها واعتبرها إحدى أولويات الحياة عند البشر، بل أقام الحروب من أجلها..

إن الإسلام مستفيد جدا من حرية البشر، وبالتالي فمن المستحيل أن يقيدها، فالذي يقيد الحرية.. الضعيف لا القوي.

٢ - الإعلام قوة كبيرة توجه الآن ضد المسلمين بصورة مفزعة (الرسول ﷺ يهدر دم أبي سفيان ابن الحارث لكثرة أشعاره التي أهان فيها الرسول ﷺ والإسلام).

من قرون.. وسيظل الإعلام إلى يومنا هذا أحد القوى الخطيرة التي تشكل فكر الشعوب وتوجههم لاتخاذ قرارات معينة، من هنا يأتي الاهتمام الرهيب من قبل النظم بآلة الإعلام.

وفي الوقت الحالي يشكل الإعلام خطرا رهيبا على الشباب، سواء بأفكاره التي تدعو إلى الانحلال، وتجري دائما وراء الشهوة والبعد عن أي طريق جاد، حتى وصل إلى حد السخرية من

القيم والأخلاق، إلى هجوم العري الذي يجعل الشباب يلهث وراءه ليطرح جانبا كل ما يهم الوطن والدين.

وفي المقابل.. يبقى الإعلام البناء الهادف محدودا ضعيفا أمام إعلام مبتذل كاسح سواء في الفضائيات أوالصحف والمجلات.

إن الإعلام مسئولية الجميع.. مسئولية الإعلامي أيا كان، ومسئولية من يقرأ أو يشاهد أو يستمع.. الجميع شركاء في جعل آلة الإعلام موجهة ضد أو مع الإسلام، وحثها لتعمل لصالح الرذيلة والهدم، أو لصالح القيم والأخلاق والبناء.

٣- البناء مرتبط بالعفو والتسامح، والهدم مرتبط بالانتقام والتدمير (الرسول ﷺ يعفو عن أبي سفيان رغم عدائه الشديد للإسلام قبل إسلامه).

من يريد البناء لابد أن يعفو ويتسامح ويتنازل؛ لأنه يريد أن يجمع ولا يفرق، ومن يريد الهدم يفكر دائما في الانتقام وتدمير الغير، ويضع قائمة طويلة بمن يريد أن ينتقم منهم، ويضيع شهورا وسنينا يتكبد خلالها القلق والتوتر والمعاناة، حتى يستطيع أن ينتهي من مهامه في الانتقام.

إن النوايا الطيبة في الإصلاح تدفع المجتمع بتلقائية إلى التراحم والحب والتسامح، من أجل هذا.. حرص الإسلام دائما على أن يحيي الآمال عند الناس، ويجعل لهم أهدافا جماعية تجمعهم على قيمة كبيرة، فتنسيهم الخلافات الصغيرة، فيتفرغوا للتفكير في مشاريع كبرى تفيد الوطن والإسلام.

إن الدول التي تجمع شعوبها على مشروعات وطنية موحدة، تقل فيها الجرائم ويزداد فيها الود والتكاتف، ويشعر فيها كل إنسان بقيمته، ويشعر الجميع أنهم أبناء فعليون لوطنهم، فيحرصون عليه حرصهم على أنفسهم.

إن العمل الجماعي المبني على نوايا صالحة أحد القيم التي ينادي بها الإسلام؛ لأنها تجنب الناس زلات الشيطان، وتحميهم من الخطأ قدر الإمكان، وتنمي فيهم روح الترابط والتسامح والعفو.

٤- البحث عن رضا الله والرسول ﷺ، أمر يستحق العناء (أبو سفيان يجتهد لكي يرضى عنه الرسول ﷺ، حتى تحقق له ما أراد في غزوة حنين).

كم منا من يشعر أن الله راض عنه، وأن رسول الله ﷺ راض عنه ؟..

إن معاصينا قد وصلت إلى حد يصعب معه أن نتوقع رضا الله عنا.. والمشكلة الأكبر.. أن ترك المعصية تعبث بحياتنا يوما بعد يوم، يجعلنا نعتاد عليها لننتقل إلى مرحلة أكبر من المعاصي، ومعها يقل الإحساس باللوم والرغبة في التوبة..

ألا يوجد وقت كاف لمحاسبة النفس ؟ ألا نستطيع أن نستخلص دقائق لنسأل أنفسنا يوما: هل الله ورسوله ﷺ راضيين عنا أم لا ؟

وهل سيتأخر اليوم الذي سنعزم فيه على الرجوع إلى الله لنكتسب ثقته من جديد ونشعر برضاه ويطمئن القلب إلى علاقته به.

إننا في حاجة ماسة إلى أن نجتهد لننال رضا الله ورسوله ﷺ، كما اجتهد أبو سفيان من فتح مكة إلى غزوة حنين..ونجح.

وسننجح إذا حاولنا بكل تأكيد.. فيما نجح فيه أبو سفيان بن الحارث.

* * *

obeikandl.com